

تفسير البحر المحيط

@ 137 @ العَقِيمِ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ

كَالرَّامِيمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ *
فَعَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ *
فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ
قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . . .

{ هَلْ أَتَاكَ } : تقرير لتجتمع نفس المخاطب ، كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه
بعجيب ، فتقرره هل سمع ذلك أم لا ، فكأنك تقتضي أن يقول لا . ويستطعمك الحديث ، وفيه
تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول ﷺ صلى الله عليه وسلم) ، وإنما عرفه
بالوحي ، وضيف الواحد والجماعة فيه سواء . وبدأ بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وإن
كانت متأخرة عن قصة عاد ، هزماً للعرب ، إذ كان أباهم الأعلى ، ولكون الرسل الذين وفدوا
عليه جاءوا بإهلاك قوم لوط ، إذ كذبوه ، ففيه وعيد للعرب وتهديد واتعاظ وتسلية للرسول
ﷺ صلى الله عليه وسلم) على ما يجري عليه من قومه . ووصفهم بالمكرمين لكرامتهم عند ﷻ
تعالى ، كقوله تعالى في الملائكة : { بَلِّغُوا عِبَادًا مَّا كُورَ مُونَ } ، قاله الحسن ، فهي
صفة سابقة فيهم ، أو لإكرام إبراهيم إياهم ، إذ خدمهم بنفسه وزوجته سارة وعجل لهم القرا
. وقيل : لكونه رفع مجالسهم في صفة حادثة . وقرأ عكرمة : المكرمين بالتحديد ، وأطلق
عليهم ضيف ، لكونهم في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم ، أو لحسانه لذلك . وتقدم ذكر
عدهم في سورة هود . وإذ معمولة للمكرمين إذا كانت صفة حادثة بفعل إبراهيم ، وإلا فيما
في ضيف من معنى لفعل ، أو بإضمار اذكر ، وهذه أقوال منقولة . وقرأ الجمهور : قالوا
سلاماً ، بالنصب على المصدر الساد مسد فعله المستغنى به . . .

{ قَالَ سَلَامٌ } بالرفع ، وهو مبتدأ محذوف الخبر تقديره : عليكم سلام . قصد أن يجيبهم
بأحسن مما حيوه أخذاً بأدب ﷻ تعالى ، إذ سلاماً دعاء . وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ،
أي أمري سلام ، وسلام جملة خبرية قد تحصل مضمونها ووقع . وقال ابن عطية : ويتجه أن يعمل
في سلاماً قالوا ، على أن يجعل سلاماً في معنى قولاً ، ويكون المعنى حينئذ : أنهم قالوا
تحية ؛ وقولاً معناه سلاماً ، وهذا قول مجاهد . وقرأ ابن وثاب ، والنخعي ، وابن جبير ،
وطلحة : قال سلم ، بكسر السين وإسكان اللام ، والمعنى : نحن سلم ، أو أنتم سلم ، وقرئنا
مرفوعين . وقرء : سلاماً قالوا سلماً ، بنصبهما وكسر سين الثاني وسكون لامه . { قَوْمٌ
مُّنْكَرُونَ } ، قال أبو العالية : أنكر سلامهم في تلك الأرض وذلك الزمان . وقيل : لا

نميزهم ولا عهد لنا بهم . وقيل : كان هذا سؤالهم ، كأنه قال : أنتم قوم منكرون ، فعرّ فوني من أنتم . وقوم خبر مبتدأ محذوف قدره أنتم ، والذي يناسب حال إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه لا يخاطبهم بذلك ، إذ فيه من عدم الإنس ما لا يخفى ، بل يظهر أنه يكون التقدير : هؤلاء قوم منكرون . وقال ذلك مع نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلما نه بحيث لا يسمع ذلك الأضياف . .

{ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ } : أي مضى أثناء حديثه ، مخفياً مضيّه مستعجلاً ؛ { فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ } : ومن أدب المضيف أن يخفي أمره ، وأن يبادر بالقرا من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يمنعه أن يجيء بالضيافة . وكونه عطف ، فجاء على فراغ يدل على سرعة مجيئه بالقرا ، وأنه كان معداً عنده لمن يرد عليه . وقال في سورة هود : { فَمَا لَدَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ } ، وهذا يدل أيضاً على أنه كان العجل سابقاً شيه قبل مجيئهم . وقال قتادة : كان غالب ماله البقر ، وفيه دليل على أنه يحضر للضيف أكثر مما يأكل . وكان عليه الصلاة والسلام مضيافاً ، وحسبك وقف للضيافة أوقافاً تمضيها الأمم على اختلاف أديانها وأجناسها . .

{ فَفَرَّ بِهٖ إِلَى هَيْمٍ } : فيه أدب المضيف من تقريب القرا لمن يأكل ، وفيه العرض على الأكل ؛ فإن في ذلك تأنيساً للأكل ، بخلاف من قدم طعاماً ولم يحث على أكله ، فإن الحاضر قد يتوهم أنه قدمه على سبيل التجميل ، عسى أن يمتنع الحاضر من الأكل ، وهذا موجود في طباع بعض الناس . حتى أن بعضهم إذا لج الحاضر وتمادى في الأكل ، أخذ من أحسن ما أحضر وأجزله ، فيعطيه لغلماه برسم رفعه لوقت آخر يختص هو بأكله . وقيل : الهمزة في ألا